فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق) فانظر كيف أخذت هذه القصة وقابلت بينها وبين الكتاب ثم إني تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة والمخالفة بينهما أخرى وهكذا ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله .

ومن ذلك ما كتبته عن الملك الأفضل علي بن يوسف إلى الديوان العزيز النبوي ببغداد في فصل من كتاب وهو وقد علم أن المال الذي يختزن كالماء الذي يحتقن فكما أن هذا يأجن بتعطيل الأيدي عن امتياح مشاربه فكذلك يأجن هذا بتعطيل الأيدي عن امتياح مواهبه وأي فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تملك به القلوب وتقل به الخطوب ويركب به ظهر العزم الذي ليس بركوب ومن بسط الله يده فيه ثم قبضها بحله فإنه يقف دون الرجال مغمورا ويقعد عن نيل المعالي ملوما محسورا وإذا أدركته منية مضى وكأنه لم يكن شيئا مذكورا ومذ ناط الله بيد الخادم ما ناطه من أمر بلاده لم يدخر منها إلا مربط أشقره ومركز أسمره وما عداهما فإنه مصروف إلى قوة الإسلام في سد ثغوره وتكثير جنوده وإيقاد حرب عدوه بعد خمودها واستباحة جمرها عند وقوده وما يفضل عن ذلك فإنه للناس يشتركون في وشله وغمره والمسلم أخو المسلم يساويه في حقه من بيت المال وإن خالفه في مزية قدره ولا سبيل على الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يدلس من هذا المال بتبعة المطلوب أو يلتحق بالقوم الذين يكنزونه فيجزي عليه بكي الجباه والظهور والجنوب ولم يأت به الله على فترة من مثله إلا ليمحو به سيئات الدين ويعيد به الإسلام إلى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين ترقمها الدنيا في ديوانه وتثقل بها في الآخرة كفة ميزانه .

وفي هذا الفصل معنى آيتين إحداهما في سورة هل أتى والأخرى في سورة براءة .

ومن ذلك ما كتبته عنه إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل إليه وهو من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوي الألباب ويمثل لهم الخطأ في مثال الصواب ولولا ذلك لما زل الحكيم وأعوج